شعر ابن الساعاتي

كلا ، ثم كلا ، لم يختم الشعر بالمتنبيّ ، ولا ختم بالمعري ولا بالشريف الرضي ولا بكشاجم ولا بابن الخياط الدمشقي ، لقد ظهر شعراء بعد هذه الطائفة المبرّزة المبدعة ، ولئن كان لكل واحد من المذكورين ميدان يجول فيه ، وأفق يطير اليه ، فقد ظهر بعدهم شاعر انفرد بميدانه وبأفقه ، ظهر ابن الساعاتي الدمشقي في العصر السادس ، عصر صلاح الدين الأيوبي ، وأخلق بشاعر مثل ابن الساعاتي ، ينشأ في عصر مثل عصر صلاح الدين ان يأتي بقلائد تشبه قلائد المتنبيّ في سيف الدولة ، فلئن كان سيف الدولة حصناً حصيناً في وجه الروم ، لقد كان صلاح الدين مثل هذا الحصن في وجه الصليبيين ، ولكن سيف الدولة خلقه الله ، وخلق له المتنبيّ حتى يخلد غزواته وحروبه ، فهو وشاعره متلازمان ، أما صلاح الدين فلم يكن له نصيب من ابن الساعاتي في تخليد حروبه ، فليس لنا ان نفتش في شعر ابن الساعاتي عن قصائد نسمع فيها صهيل الخيل وقعقعة اللجم وصرير العوالي ، كما سمعنا هذه الأنغام في شعر المتنبيّ ، فما هو من فرسان هذا الميدان ، ولكنه فارس ميدان لم يجل فيه غيره جولته ، ولا برّز فيه غيره تبريزه ، فقد أرسله الله في عصر اختمرت قبله لغة الشعر كل الاختمار ، فما على ابن الساعاتي الاّ ان يغرف من بحرها الخضم ، وما عليه الا ان يعرّف هذه اللغة الناضجة في أشرف الغايات وأسماها ، فلست بمتعرض في مقالي الوجيز لفنون شعره وما اشتملت عليه هذه الفنون من مدح او غزل او رثاء ، وانما أريد ان أشير في هذه الكلمات المختصرة الى ناحية من شعره ، ظهر مثلها في عصرنا هذا ، وكنا نظن انا المخترعون لها ، السابقون اليها ، واذا بابن الساعاتي يردنا الى الصواب ، لم ينبت شعرنا الوطني في العصر الذي نعيش فيه ، وانما نبت هذا الشعر من عصور بعيدة ، لقد تغنى الشعراء بأوطانهم من أحقاب متطاولة ، ولكن ابن الساعاتي برع في هذا الباب ، لقد تغنى بوطنه أعذب غناء ، فلست ذاكراً من شعره الغزير الاّ هذه الناحية وحدها ، فقد تفنن فيها وكثرت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

محاسنه في آفاقها ، واذا أردت ان أختار له صفةً اختصه بها فلا أقول فيه الا شاعر الوطنية ، فما عرف أحد من الشعراء فضل الوطن معرفته ، ولا نعم بفتنة طبيعته نعمته ، ولا الف أفياءه ألفته ، ولا اشتاق الى ارضه وسمائه اشتياقه ، ولا ذكر اخوانه في ظلاله ذكره لهؤلاء الاخوان ، فابن الساعاتي ذاب في محبة وطنه ، ذاب في محبة دمشق ومتنزهات دمشق ، ذاب في محبة كثبانها وباناتها ، وآصالها واسحارها ، ونسيمها وجوها ، وخمائلها وجناتها ، ودوحها وبلابلها ، وظلها ومائها ، وتربها وحصاها ، ونرجسها وبهارها ، ووردها وبنفسجها ، وجلنارها ورمانها ، ذاب في هذه المحاسن كلها ، وذابت هذه المحاسن في شعره ، فلست ترى في هذا الشعر الوطني الا آثار منازل لهو في دمشق ماتت فيها الكروب ، او صور طبيعةٍ نُفخت فيها الحياة ، حتى غدت لمياهها قلوب تعشق بهـا وتحب ، ولدوحها معاطف تشبه معاطف الراقصات ، وحتى غدا الدوح في هذا الشعر يهزه نغم القماري ، ويميل من مرح الشباب الى الدلال ، لقد ملكت دمشق على ابن الساعاتي قلبه ولبه ، فاذا غاب عنها بكى على شرخ شبابه وعلى أيام جهله فيها ، وشكى تلون عهود أهلهـا واشتاق اليهم ، ورجا ان يقرب الله مزارهم فهو لا يسلو عنهم ، انه وافٍ لمن غدر منهم ، حافظ لعهد من ضيع كل عهدٍ ، وقد يشتد به الشوق الى دمشق والى محاسن دمشق ، والى أهل دمشق فيتمنى وهو في مصر لو تمر غادية شامية تحمل الى نفسه عن أهل دمشق منى هذه النفس ، وتنقل اليها أحاديث الحب ، لقد خلق الله له نفساً حرةً تصبو الى اخوانه وتبكي اذا غابت عن هؤلاء الاخوان .

ما أرق شعور ابن الساعاتي ! ما الطف حسه ! ما اشد ذوقه لمحاسن الطبيعة ! فقد أعطاه الله عيناً لا يفوتها حسن من محاسن هذه الطبيعة ، وأنفاً لا يفوته شيء من شميم روائحها الطيبة ، وأذناً فتنت بسماع الحانها وانغامها ، ولقد أعطاه الله شيئاً اجل من هذا كله ، اعطاه قدرة على تصوير هذه الطبيعة . وعلى احيائها في شعره ، فهو شاعر الوطنية الدمشقية ، شاعر طبيعة دمشق وخمائل دمشق وبلابل دمشق ، وكل جزء من اجزائها ، وكما رزقت دمشق الخلود في البلدان ، فقد رزق شاعرها الخلود

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الشعراء ، فانه صورتها الواضحة ومرآتها الصافية ولسانها البليغ ولحنها العذب ، هذه هي الناحية التي شغلتني في شعر ابن الساعاتي عن كل نواحيه الشعرية ، ولقد يذهب الشاعر في فنون شتى ، فيضعف في اكثرها ويقوى في واحدٍ منها ، فيجيئه الخلود من هذا الفن الذي قوي فيه ، وابن الساعاتي خالد من ناحية شعره الوطني ، وهي كافية ، انه ليس في حاجة الى غيرها ، فهو خالد من هذه الناحية التي يقول فيها :

وجبرة السفح من لبنان جادكم ... نظير دمعي اذا ماانهلّ او هطلا
تلوّنت مثل أيامي عهودكمُ ... واستبدلوني ولم اطلب بهم بدلا
مهىً خلعت الصبا والشمل مجتمع ... خلع الرداء على ايامهم حللا
سموا الظلام على أقماره شعراً ... ويانع الورد في أغصانه خجلا
واهاً لشرخ شباب كنت مغتبطاً ... به وعمر وصالٍ كان مقتبلا
شكوت ان هزني ذومنظر بهج ... او لذّ صفو حياة بعدكم وجَلا
كم موقف مثل حد السيف دونكم ... مضيت فيه وحدالسيف قد نكلا
وزروة لي وعين النجم ناعسة ... من السرى وخضاب الليل مانصلا
جهلت فيهافأدركت المنى كثباً ... وانما يدرك اللذات من جهلا
وان نارالهوى بالدمع ماخمدت ... كما زعمتم وجرح الشوق ماانملا
آهاً لقلب أسيرٍ في رحالكم ... نصحته فيكم جهدي فما قبلا !

* * *

وهو خالد من هذه الناحية الثانية التي يقول فيها :

يا أخلاّيَ وان شطّ بنا ... حادث الأيام عنكم وثناها
حبذا غادية شامية ... حملت عنكم الى النفس مُناها
ما حداها الرعد الاّ قصرت ... شقة الفسطاس ممدود خطاها
وجد القطر سهاماً فرمى ... ومن البرق سيوفاً فانتضاها
فأصابت مقلة دامية ... وفؤاداً طال فيكم ما اتقاها
نقلت عنكم أحاديث الصبا ... فأقر الله عيني من وعاها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بلغت عنكم شفاهاً حبذا حبذا ما بلغت عنكم شفاها
لا تلم عيني على طول البكا كيف لا تدمع والبين قذاها
وقليب القلب ما زال به فاتحاً انسانها حتى أماها
طال ليلي طول وجدي بكمُ فزماني ليلة مات ضحاها
لو يسير الطيف في اثنائه — وهو الطيف — او النجم لتاها
ما على ماطل ديني لو قضى وعلى قاتل نفسي لو وَداها
فقرها الا اليكم مشتهى وجميل عنكم الا غناها
وجدت من نأيكم ما وجدت فالى عالم بثي مشتكاها
قسماً ما بقيت عن سلوةٍ انما يحمل عنها من بلاها
أمر الدهر عليها ونهى بأمر الحرص بما ينهى نُهاها
دعوة الشوق لكم مسموعة فاذا ما هتفت كنت صداها

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net